



التجربة الأخلاقية عند ابن حزم الأندلسي

ابن حزم أحد أعلام الفكر الأندلسي (توفي سنة 456هـ) وهو شخصية متعددة المواهب، فهو فقيه، وأصولي، ومؤرخ، ومنطقي، ومحدث، ومصلح اجتماعي، ومحلل نفسي، وشاعر.. وقد أثبت كفاءته في كل الميادين التي كتب فيها، وبرهن بالتالي على سمة التواصل بين فروع الثقافة الإسلامية.

ففي مجال الفقه تبنى المذهب الظاهري، وأصبح علما عليه، بل كان أكبر المدافعين عنه في العالم الإسلامي كله. وله في هذا المجال كتاب "المحلى" (عشرة أجزاء) وفي أصول الفقه ترك لنا كتابه المقيم "الأحكام في أصول الأحكام" (4 أجزاء). وفي التاريخ العربي ألف كتاباً موثقاً عن أنساب العرب، أما في علم الحديث فقد جمع كل الأحاديث والروايات التي تتصل بحجة الوداع التي قام بها الرسول r،

قبل وفاته. وفي مجال مقارنة الأديان كتب مؤلفاً يعتبر من أهم المصادر في هذا المجال بعنوان "الفصل في الملل والأهواء والنحل" وفي مجال المنطق قام بمحاولة تلخيص منطق أرسطو بطريقة متفردة عن كل من سبقوه في كتاب بعنوان "التقريب لحد المنطق والمدخل إليه" وفي مجال المصالح الاجتماعية والتحليل النفسي ترك لنا ابن حزم كتابه النادر "طوق الحمامة" الذي يتناول فيه تحليل ظاهرة الحب، من وجهة النظر الإسلامية، والذي ترجم إلى معظم لغات العالم.

ومن بين الروائع الكثيرة التي تركها ابن حزم توجد رسالة صغيرة الحجم بعنوان "الأخلاق والسير في مداواة النفوس". يقول مطلعها:

"أما بعد، فإنني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة، أفادنيها وأهب التمييز، تعالى، بمرور الأيام، وتعاقب الأحوال، بما منحني عز وجل، من المتهم بتصاريف الزمان، والاشراف على أحواله، حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له، والفكرة فيه، على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس، وعلى الأزددياد من فضول المال، وزممت كمل ما سيرت من ذلك بهذا الكتاب، لينفع الله به من يشاء من عباده، ممن يصل إليه، بما أتعبت فيه نفسي، وأجهدتها فيه، وأطلت فيه فكري، فيأخذه عفوًا، وأهديته إليه هنيئًا، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال، وعقد الأملالك، إذا تدبره، ويسره الله، تعالى، لاستعماله، وأنا راج في ذلك من الله تعالى، أعظم الأجر لئيتي في نفع عباده، واصلاح ما فسد من أخلاقهم، ومداواة نفوسهم ."

والمأمل في هذه المقدمة يمكنه أن يقف على عدة عناصر منهجية تتميز بها جميع كتابات ابن حزم تقريباً. منها: تحديد مصدر المادة العلمية التي ضمنها المؤلف كتابه، وهي هنا عبارة عن تجاربه الشخصية وتأملاته الخاصة في الحياة والناس من حوله. ومنها: بيان أهمية الموضوع الذي يتناوله، وأنه أفضل من جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس، وأغلى من كنوز المال، وعقد الأملالك، ومنها: الإشارة إلى الجهد المبذول في هذا العمل، وأنه قد استغرق أكثر عمر المؤلف، وشغل جانباً هاماً من تفكيره ومراجعته، ولما شك في أن عبارته "حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري" تدل بوضوح على أن هذا الكتاب يأتي - من الناحية التاريخية - في الجزء الأخير من قائمة مؤلفات ابن حزم. ثم أن من أهم العناصر المنهجية أيضاً: ذكر الغرض من التأليف، وهو أن يضع كتاباً مركزاً يجتوى على مجموعة من التجارب والنصائح الأخلاقية لكي يتدبرها القارئ، فقد يوفقه الله تعالى إلى استعمالها في سلوكه. وأخيراً فإن الدافع وراء هذا العمل، لم يكن كما هو الحال لدى كثير من المؤلفين القدماء - تقرباً إلى عطف سلطان، أو تحقيقاً لـرغبة صديق عزيز، وإنما هو كما يحدده ابن حزم: رجاء في أجر عظيم من الله تعالى، لأن نية المؤلف إنما هي لنفع الناس، واصلاح ما فسد من أخلاقهم، ومداواة نفوسهم .

وهكذا فنحن أمام محاولة، في المجال الأخلاقي، تتجه إلى كل إنسان، يمكنه أن يقيس بنفسه مدى نجاحها أو فشلها بمجرد ملاحظة رد الفعل الذي يحدث من تأثيرها فيه .

ثم بعد المقدمة، تتوالى فصول الكتاب، التي تبلغ 12 فصلاً، مصدرة بالعناوين التالية :

- فصل في مداواة النفوس واصلاح الأخلاق.

- باب عظيم من أبواب العقل والراحة.
- فصل في العلم.
- فصل في الأخلاق والسير.
- فصل في الاخوان والصدقة والنصيحة.
- فصل في أنواع المحبة.
- فصل في أنواع صباغة الصور.
- فصل فيما يتعامل الناس به ، وفي الأخلاق.
- فصل في مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة.
- فصل في غرائب أخلاق النفس .
- فصل في تطلع النفس ما يستر عنها ن كلام مسموع ، أو شئ مرئى ، أو إلى المدح وبقاء الذكر.

-فصل في حضور مجالس العلم.

ولسنا نميل إلى اعتبار هذه العناوين من وضع ابن حزم نفسه ، ويحتمل أن تكون من ضع بعض تلاميذه ، أو نساخ كتبه . ويلاحظ أنها لا تعبر بدقة عما يوجد في داخل الفصول ، بل يمكن القول بأن هذه العناوين ، بالإضافة إلى عنوان الكتاب نفسه ، قد أساءت كثيراً لمضمون الكتاب ، وحولت أنظار القراء عن بعض نظرياته المبتكرة ، وأفكاره العميقة ، وقصده على كونه مجرد كتاب عادى في الحكم والمواعظ الأخلاقية . الأفضل إذن أن أن تدع عناوين الفصول جانباً وأن نتناول ، بقدر من التأمل والتحليل ، محتوى الفصول ذاتها ، حتى نتعرف على تلك المحاولة الفريدة التي قدمها ابن حزم في مجال الأخلاق الإسلامية .

ولكى نتبين بوضوح محتوى الرسالة الأخلاقية التي أراد ابن حزم أن يوجهها للمعاصرين ، وللأجيال اللاحقة له ، يمكننا تصنيفها في الأقسام الثلاثة الآتية :

أ-الماعتراضات الأخلاقية.

ب-مجموعة الحكم.

ج-نظرية جديدة في الأخلاق.

وفى رأينا أن هذه الأقسام الثلاثة تمثل عناصر التجربة الأخلاقية التي مر بها ابن حزم أصدق تمثيل. فهناك أولا الاعتراضات الأخلاقية وهي تعبر عن مرحلة مرحلة البحث واكتشاف حقيقة الذات. وفيها توصل ابن حزم إلى بعض جوانب النقص في شخصيته، وبتحديدها، والماعلان عنها ينتقل ابن حزم من انسان منفرد يسمى إلى اصلاح نفسه، إلى مصلح أخلاقي يهتم بخير الآخرين. يقول: "ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والردائل، لينظر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره، ويرغب في الحسن المنقول عن تقدمه، ويتعظ بما سلف" (1) ثم هناك ثانيا مجموعة الحكم وهي عبارة عن خلاصة مركزة لخبرة عميقة في الحياة، واحتكاك مباشر مع المجتمع. وسوف نختر من بينها بعض الأمثلة التي تكفي لوضع ابن حزم بين مصاف الحكماء العالميين الذين برزوا في هذا الفن. وأخيرا تأتي النظرية الجديدة التي يقدمها ابن حزم في مجال الهدف النهائي من الحياة الأخلاقية، وهي نظرية "طرد الهم" التي يمكن أن تحل محل نظرية "السعادة" اليونانية، والتي تبنّاها بعض فلاسفة المسلمين بالفعل، ولكنها ظلت عرضة للكثير من أوجه النقد، أما نظرية ابن حزم فيؤكد لنا أنها صالحة للتطبيق على الإنسان في كل زمان ومكان.

أولاً: اعترافات ابن حزم:

إذا كانت الاعترافات الذاتية زادرة في تاريخ الفكر الإنساني، فأندر منها الاعترافات الأخلاقية. ومرجع ذلك لسبب بسيط: هو أنه إذا كان الخطأ العقلي مسموحاً به لدى طبقة المفكرين، فإن الخطأ الأخلاقي مرفوض تماماً من المجتمع كله. ألسنا نسمع مثلاً أن (الاعتراف بالخطأ فضيلة) والمفهوم طبعاً هو الخطأ العقلي، ويعلمنا رسول الله، r ، أن المسلم إذا اجتهد برأيه فأصاب فله أجران، فإن الخطأ فله أجر واحد. وهذا معناه أنه مذاب على حالتي المصواب والخطأ، والمقصود أيضاً هو الشخص الذي يتصدى لأصدار الفتوى في مسألة دينية. لكننا على العكس من ذلك، لا نكاد نسمع شيئاً عن أن تصريح الإنسان بأخلاقه السيئة يحتوى على أية فضيلة.

بل إن الإسلام يحض المسلم على أن يدارى سيئاته (إذا بليتيم فاستتروا) وكأنما يقصد بذلك أن يحصر الرذيلة في أضيق نطاق ممكن، وبهذا يصبح السكوت عنها نوعاً من مقاومتها.

غير مقبول إذن أن يكون التصريح بالعيوب موضع افتخار وتحذ للمجتمع لأنه يعود بالضرر المؤكد على النشئ، الذين يميلون بطبعهم إلى محاكاة ما يوجد أمامهم من مظاهر الشذوذ والغربة (2). لكن أن تذكر العيوب الأخلاقية بهدف أن يتعظ بها الآخرون، حتى يدركوا أن من يتصدى لوعظهم، واصلاح أخلاقهم بشير مثلهم، يتعرض لما يتعرضون له من لحظات الضعف الإنساني، وتتسلط عليه من الأهواء والنوازع في بعض الأحيان ما يتسلط عليهم. فهذا شئ مختلف، بل إنه أسلوب ممتاز في جذب النفوس إلى الموعظة الحسنة، والسير المستقيمة. يقول ابن حزم:

" كانت في عيوب، فلم أول بالرياضة، وإطلاعي على ما قلت الأنبياء، صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق، وفي آداب النفس، أعاني مداواتها.. حتى أعان الله، عز وجل، على أكثر بتوفيقه ومنه.

وتمام العدل ، ورياض النفس ، والمتصرف بأزمة الحقائق : هو الإقرار بها ، ليتعظ بذلك متعظ يوما أن شاء الله .

فمنها : كلف في الرضا () ، وافراط في الغضب :

فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك اظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار ، وتحملت من ذلك ثقلا شديدا وصبرت على مغمص مؤلم ، كان ربما أمرضنى ..

وأعجزنى ذلك في الرضا ، وكأني سامحت نفسي في ذلك ، لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم .

- ومنها : دعابة غالبية :

فالذي قدرت عليه فيه امساكى عما يغضب الممازج ، وسامحت نفسي فيها إذا رأيت تركها من الأنغلاق ، ومضاهيا للكبر .

- ومنها : عجب شديد :

فناظر عقلى نفسى بما يعرفه من عيوبها ، حتى ذهب كله ، ولم يبق له ، والحمد لله ، أثر . بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة ، واستعمال التواضع .

- ومنها : حركات كانت تولدها غرارة الصبا ، وضعف الأعضاء فقصرت نفسي على تركها فذهبت .

- ومنها محبة في بعض المصيت والعلبة :

فالذي وقضت عليه من معاناة هذا الداء الماسك فيه عمل لا يحل في الديانة ، والله المستعان على الباقي..

- ومنها افراط في الأنفة ، بغضت إلى انكاح المحارم^(١) حملة بكل وجه ، وصعبت ذلك في طبيعتي.

وكأني توقفت عن مغالبة هذا الافراط اذى أعرف قبحه لعوارض اعترضت على ، والله المستعان.

- ومنها حقد مفرط :

قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره ، وغلبته على اظهار جميع نتائجه ، وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه ، وأعجزني معه أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبدا .^(٢)

- وأما سوء الظن.

فيعده قوم عيبا على الماطلاق ، وليس كذلك ، غلا إذا صاحبه ما لا يحل في الديانة ، أو إلى ما يقبح في المعاملة ، والمافهو حزم ، والحزم فضيلة .^(٣)

- وأما الزهو ، والحسد ، والخيانة .. فلم أعرضها بطبعي قط ، وكأني لأحمد لى في تركها ، لمنفرة جبلتي (طبيعتي) إياها.^(٤)

وكذا يمثل هذا الموضوع والمصراحة ، يقدم ابن حزم نفسه أنا عارية من الأقنعة التي يندر أن يخلعها الإنسان أمام الآخرين

. فإذا نظرنا إلى هذه الاعترافات من وجهة النظر العلمية الخالصة ، وجدنا أن ابن حزم قد وصل إلى مرحلة عالية من التحليل النفسي الذاتى ، استبطن فيه مكونات شخصيته ، وكشف عن ذوازعها واتجاهاتها ، ووضع يده على مواطن العيوب ، وأوجه النقص .

ومن المعروف أن الطبيب النفساني لا يفعل مع مريضه أكثر من أن يصحبه في رحلة عميقة داخل ذاته ، حتى يكتشف في النهاية معاً أسباب العقد النفسية التي عندما تترك بدون كشف تصبح مرضاً خطيراً يفسد هذه التجارب ، فإنه قد يخدع أولاً بمظهرها الخارجى ، وقد يقف طويلاً لديه ، ولكنه اذا تعمق التجربة ، وحاول اكتشاف جوهرها وجد نفسه وجهاً لوجه أمام حقيقتها الثابتة التي لا تتغير .

ثانياً: مجموعة الحكم:

وقد ورث المسلمون حضارات الأمم السابقة عليهم ، واستوعبوا معظم الثقافات التي كانت منتشرة في أرجاء العالم القديم ، ولا شك أنهم وقفوا على هذا اللون من الفلسفة أو الحكمة المركزة . وقد أحجوا به ، ونقلوا الكثير منه إلى اللغة العربية ، فصانوه بذلك من الضياع . لكن جهودهم لم تقتصر على ذلك ، فقد ساهموا هم أيضاً فيه ، وما زال تراثهم في هذا المجال بحاجة إلى الجمع والتصنيف ، فضلاً عن دراسته وتحليله . وحسبنا هنا الآن أن نتوقف لدى ابن حزم ، الذي ترك لنا في كتابه الصغير الحجم الذى نعتمد عليه في هذه الدراسة ، عدداً لا بأس به من الحكم الأخلاقية ، والتي سوف نقتطف منها مجموعة كافية في دلالتها لاثبات أننا أمام مفكر عميق ، وفيلسوف خبر الحياة ، واستخلص من أحداثها المتغيرة والمنقطعة موقفاً أكثر ثباتاً واستمراراً .

- لا مرؤة لمن لا دين له.

- العاقل لا يرى لنفسه ثمنًا لما المجنة.

- من قدر أن يسلم من طعن الناس ويعيوبهم فهو مجنون.

- انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك.

- إذا تكاثرت المهموم سقطت كلها. 0

- طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها. 0

- أول من يزهّد في الغادر من غدر له الغادر، وأول من يمتق شاهد الزور من شهد له به، وأول من تهون المزانية في عينه الذي يزني بها. 0

- كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه. 0

- لا يغتر العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته، فكل واحد صديقه يومئذ. 0

- ثق بالمتدين وأن كان على غير دينك، ولما تثق باستخف وأن أظهر أنه على دينك. 0

- زوار الفتنة لا يعقد. 0

- لا يخلو مخلوق من عيب، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت. 0

- استبقالك من غاتيك، وزهد فيك من استهان بسيئاتك. 0

- العتاب للصديق كالسبك للسبيكة، فإذا أن تصفوا وإما أن تطيلوا. 0

- لا تنصح على شرط القبول، ولما تشفه على شرط الإجابة، ولما تهب على شرط الماثابة، لكن على سبيل استعمال الفضل، وتدية ما

عليك من النصيحة، والشفاعة وبذل المعروف. 0

- قد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه. 0

- الخطأ في الحزم من الخطأ في التضجيع. 0

- أشد الناس استعظاماً للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالاً لها بفعله. 0

- أقنع بمن عندك يقنع بك من عندك. 0

- الطمع سبب كل هم. 0

ثالثاً: نظرية طرد المهم:

لكي ندرك مدى الجدة في نظرية ابن حزم لابد من القاء نظرة سريعة على المذاهب الأخلاقية التي سبقتها، مركزين بصفة خاصة على الغاية أو المهدف النهائي من الحياة الأخلاقية.

في الفكر المارغريقي، نجد أن غاية الأخلاق لدى السفسطائيين تنحصر في تحقيق المادي الفردي لكل إنسان. أما سقراط فقد جعل هذه الغاية هي السعادة. ولكي نصل إلى السعادة لابد أن نمارس الفضيلة، التي تنتج عن المعرفة. أي أنه لكي يكون الإنسان فاضلاً لابد أن يكون عالماً. ولما شك في أن هذا المفهوم يقصر الفضيلة، وبالتالي السعادة، على قلة قليلة من المجتمع. 0

كذلك قرر أفلاطون أن غاية الحياة الأخلاقية هي السعادة لكنه يجعلها تقترب بالعدالة أي الاعتدال في الأمور، ولا يتحقق الخير الأسمى للإنسان إلا إذا أدرك عالم المثل، الذي يعتبر عالما الأرض نسخة مشوهة منه (٥).

ولدى أرسطو، الذي كتب مؤلفا مستقلا في الأخلاق، أصبحت الأمور أكثر تحديدا. فقد جعل الخير الأسمى هو غاية الأخلاق. ومفهومه أنه الخير الذي يطلبه الناس جميعا لذاته، ولما يرجون من ورائه شيئا آخر، وقد حدده أيضا بأنه السعادة. ويتحقق السعادة عنده بالتأمل العقلي. أما الفضيلة فقد عرفها بأنها: "وسط بين طرفين" هما التفریط والمفرط. ومعنى ذلك أن تكون الشجاعة مثلا حالة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين الماسراف والتقتير.. وهكذا (٥).

وفي العصر الهليني ظهرت بعض المذاهب الأخلاقية التي انبثقت بالضرورة عن مذاهب فكرية وفلسفية مختلفة، هي المايقورية (اتباع أبيقور) والرواقية، ومذهب الشك.

وعلى الرغم من المخالفات الدقيقة بينها، فإنها تلتقي جميعا في حصر السعادة في الجانب العقلي أو الروحي، وإهمال جانب الجسد، واحتقار الحياة المادية بكل أنواعها. ويلاحظ أن مفهومها للسعادة يشيع فيه الاتجاه السلبي بمعنى أن الإنسان يبتعد عن المجتمع ليسلم من شروره، وينصرف عن الحياة المادية ليتخلص من مصائبها (٥).

وقد ظل هذا الاتجاه الفكري والأخلاقي سائداً بين أصحاب هذه المذاهب حتى ظهرت المسيحية، واستقرت، فتغلب مفهومها للحياة الأخلاقية. وهو مفهوم يقوم أساسا على أن السعادة التي يسعى إليها الإنسان في هذه الحياة سعادة وهمية، لأن السعادة الحقة إنما هي في ملكوت السماوات. وهذه النقطة هامة جداً لأنها تفصل بصورة حاسمة بين التصورات المايقورية وما تلاها وبين التصور المسيحي. ولما شك في أن حياة السيد المسيح قدمت للمفكرين الأخلاقيين نموذجاً رائعاً في □ □ □ شتى جوانبه. لكنهم ركزوا بصفة خاصة على ما جاء في تعاليمه □ □ □ □ من التواضع، والمسامحة، والعفو عن الآساءة (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) وهذا منتهى النبل الإنساني في معاملة المس □ □ (٥).

لكن الأخلاق المسيحية تبدأ من مسلمة أخرى أيضا هي أن الإنسان في الواقع يعيش نتيجة خطيئته الأولى أو الأصلية، لذلك فإنه مطالب منذ اللحظة الأولى لميلاده بأن يكفر عن هذه الخطيئة، ولهذا فإنه يعيش محملا بعقدة ذنب، لم يرتكبه، ومدركا أنه ذو طبيعة رديئة، يجب عليه أن يصارعها باستمرار. وهو يتسلح في خلال ذلك بالصلاة، وإخلاص النوايا (تحتل النية مكانة أكبر بكثير من الفعل) والتحرر من الداهواء والنوازع البشرية، مع الاعتقاد بأن الإنسان لن يمتلك السعادة قط على هذه الأرض المليئة بالشرور والخطايا، وإنما فقط يمكنه أن يحس بها، ولما ينتج هذا لما من الأمل في عفو الله ورحمته التي تسع جميع المذنبين (٥).

من المعروف أن فلاسفة الإسلام كالفارابى وابن مسكوية والغزالى قد تبنا بعض النظريات الاغريقية الخاصة بالمهدف الأخير من الأخلاق، واختاروا فكرة السعادة باعتبارها هى الغاية الأسمى التى يسعى الناس جميعا إلى بلوغها، ويطلبونها لذاتها أى دون أن تكون هى الأخرى وسيلة لغرض آخر.^(١)

كن ابن حزم يطالعنا فى كتابه "الأخلاق والسير"^(٢) بنظرية جديدة حول غاية الأخلاق، وهو يحددها فى مصطلح جديد تماما هو "طرد المهم" ويؤكد أنه قد توصل بخبرته الطويلة وتجاربه إلى أن هذا الغرض يصلح أن يكون هدفاً أسمى للحياة الأخلاقية. وللتدليل على صحة رأيه، يؤكد ابن حزم أنه وجد أن الناس جميعا على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم يسعون إلى بلوغ هذا المهدف، ويتفقون على أنه هو غرضهم، فى حين أن أى هدف آخر - بما فيه السعادة - يمكن أن يكون محل خلاف بينهم. ^(٣) يقول ابن حزم:

" تطلبت غرضا يستوى الناس كلهم فى استحسانه، وفى طلبه، فلم أجده غلا واحدا، وهو طرد المهم. فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا فى استحسانه فقط، ولما فى طلبه فقط، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم، وتباين همهم وارايتهم ^(٤) يتحركون حركة أصلا لما فيما يرجون به طرد المهم، ولما ينطقون بكلمة أصلا لما فيما يعانون به أزاحته عن أنفسهم: فمن مخطئ وجه سبيله، ومن مقارب للخطأ، ومن مصيب وهو الأقل من الناس، فى الأقل من أموره .

فطرد المهم مذهب قد اتفقت الأئمة كلها، منذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم المابتداء^(٥) ويعاقبه عالم الحساب على ألما يعتمدوا بسعيهم شيئا سواه، وكل غرض غيره ففى الناس من لا يستحسنه .

اذ فى الناس من لا دين له فلا يعمل للأخرة.

وفى الناس من أهل الشر من لا يريد الخير، ولما الأمان، ولما الحق .

وفى الناس من يؤثر الخمول بهواه وادته على بعد المصيت

وفى الناس من لا يريد المال ، ويؤثر عدمه على وجوده ، ككثير من الأنبياء عليهم السلام ، ومن تلاهم ، الزهاد والفلاسفة

وفى الناس من يبغض اللذات بطبعه ، ويستنقص طالبها ، وفى الناس من يؤثر الجهل على العم ، كأكثر من ترى من العامة .

هذه هى أغراض الناس التى لا غرض لهم سواها .

وليس فى العالم منذ كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن لهم ، ولما يريد طرده عن نفسه ."

ذا - إذا أمكن القول - هو المشق الأول من نظرية ابن حزم . وقد حدد فيه بوضوح الهدف الأساسى والمنهاى من الحياة الأخلاقية ، مؤكدا على عمومية هذا المهجف أو عالميته ، وصلاحيته لكل زمان و مكان .

لكن يبقية النصف الثانى ، وهو يتمثل فى توجيه الانسان إلى تحقيق هذا الهدف ، وإرشاده إلى الطريق المؤدية اليه . وفى هذا يقول ابن حزم :

" فلما استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى هذا السر العجيب ، وأنازل الله تعالى لفكرى هذا الكنز العظيم ، بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد المهم ، الذى هو المطلوب للنفس ، الذى اتفق جميع أنواع الانسان ، الجاهل منهم والعالم ، والمصالح والمطالح ، على المسعى له ، فلم أجدها الا : المتوجه إلى الله ، عز وجل ، بالعمل للآخرة .

الما ، فانما طلب المال طلابه ليطردوا به هم الفقير عن أنفسهم.

وإنما طلب الصوت (المصيت) من كلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها.

وإنما طلب المذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها.

وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل.

وإنما همش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس ، من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحيد ، ومغيب أحوال العالم عنه.

وإنما أكل من أكل ، وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، وليس من لبس ، ولعب من لعب ، واكتن (استتر في منزل) من اكتن ، وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتودع من تودع ... ليطردوا عن أنفسهم أصدقاء هذه الأفعال وسائر المهموم .

في كل ما ذكرنا ، لمن تدبر ، هموم حادثة لا بد لها من عوارض تعرض في خلالها ، وتعذر ما يتعذر منها ، وذهاب ما يوجد منها ، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة ، وأيضا نتائج سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك ، من خوف منافس ، أو طعن حامد ، أو اختلاس راغب ، أو اقتناء عدو ، مع الذم والمائم ، وغير ذلك.

وجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب ، خالصا من كل كدر . موصلا إلى طرد المهم على الحقيقة.

ووجدت العامل للآخرة ان امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم، بل يسر ، ان رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب ، وزائد في الغرض الذي اياه يقصد .
ووجدته ان عاقبه عما هو بسبيله عائق لم يهتم ، ان ليس مؤاخذا بذلك ، فهو غير مؤثر في ما يطلب.

ورأيت أنه قصد بالأذى ، وأن نكبه نكبة سر ، وأن نكبه نكبة سر ، وأن تعب فيما سلك فيه سر ، فهو في سرور متصل أبدا ، وغيره بخلاف ذلك أبدا .

وأخيراً يلخص ابن حزم نظريته المبتكرة بجانبها اللذين يتضمنان الهدف والوسيلة في قوله:

" فاعلم أنه مطلوب واحد ، وهو طرد المهم.

وليس له الما طريق واحد ، وهو العمل لله تعالى.

فما عدا هذا فضلال وسخف. "